اختلاف القراءات القرآنية في ضوء اللّهجات العربية

The diffirence in the Quran readings in the light of arabic dialects

جلول دواجي جمال[1]*

[1] جامعة وهران أحمد بن بلة 01، daouadji1500@hotmail.fr

تحت إشراف الأستاذ: منصوري ميلود

تاريخ الاستلام: 2023-03-14 تاريخ القبول: 2023-06-03 تاريخ النشر: 2023-06-08

مُلخّصُ البَحث

تعتبر القراءات القرآنية من العلوم الجليلة الّتي وجب الالتفات إليها في ظلّ تطوّر الوسائل البّحثية اللغوية باعتبارها مصدر لا ينضب وجد فيها الدرس اللغوي الحديث مادة خام لغناها بالظواهر الصّوتية والصّرفية والنّحوية والدّلالية، و التي لا يمكن أن يجدها في أي نص بشري آخر، كما أنها مصدر موثوق لاستشهاد النّحوي في حالة وجود خلاف حول قضية نحوية معينة، وفي الجانب الآخر فهي مصدر تاريخي للهجات العربية القديمة تمكّننا من إنشاء أطلس لغوي شامل للهجات العربية، ومن خلال هذه الورقة البحثية سنحاول تسليط الضوء عليها و كيف انصهرت في نص قرآني واحد و كيف استوعبها هذا النصص المقدس دون أدنى تناقض أو اختلاف.

كلمات مفتاحية: القراءات القرآنية، اللهجات العربية، الواقع المثالي.

Abstract:

The Qur’anic readings are among the noble sciences that must be paid attention to in light of the development of linguistic research tools as an inexhaustible source in which the modern linguistic lesson found a raw material for its richness in phonetic, morphological, grammatical and semantic phenomena, which cannot be found in any other human text, as it is a reliable source. To cite the grammarian in the event of a disagreement about a specific grammatical issue, and on the other hand, it is a historical source for the ancient Arabic dialects that

* المؤلف المرسل: جلول دواجي جمال

enables us to create a comprehensive linguistic atlas of the Arabic dialects, and through this research paper we will try to shed light on them and how they were fused into one Quranic text and how this text absorbed them Sacred without the slightest contradiction or difference.

Keywords: Quranic readings; arabic dialects; perfect reality

1. مقدمة:

تعدّ القراءات القرآنية من الأساليب الّتي تميّز بها النّص القرآني، وقد انفرد بهذه الخاصية دون سائر النّصوص البشرية الّتي لو دخل فيها أدنى تغيير لتبدّل المعنى واختلّ التركيب فحدث بذلك الاختلاف والتّناقض، بل وينزل هذا النّص من أعلى مراتب البلاغة والفصاحة إلى منازل السّوقية والسّخافة، فيصير باهتاً خافتاً قد فقَد كل مميّزات الجمال والتّأثير في النّفس على عكس النّص القرآني الذّي نجد في بعض كلماته أوجهاً متعدّدة للقراءة وكل وجه يتناسب مع الوجه الآخر وعلى منهاج واحد في النّظم ومرتبة واحدة في غاية الفصاحة والبلاغة والتّكامل في التّصوير، وحين نتحدث عن القراءات القرآنية فإنّنا بالضرورة نتحدث عن اللّهجات العربية الّتي كانت سائدة خلال فترة نزول القرآن الكريم باعتبارها صورة لموروث القبائل العربية المعروفة آنذاك الضّاربة في عمق صحراء الجزيرة العربية والمعروفة بتعصّبها لكلّ ما له علاقة بلسانها أو واقعها الاجتماعي والديني، وحين نناقش العلاقة بين **القراءات القرآنية** و**اللّهجات العربية**، فنحن نناقش العلاقة بين ثنائية "**المثال**"و"**الواقع**"، لكن كيف استطاع النّص القرآني المحافظة على قدسيته وتوحيد القبائل العربية والمحافظة على سمتها وبصمتها دون أدنى تناقض أو مدعاة للعصبية القبلية؟، وما حقيقة ما ذهب إليه بعض الباحثين في اعتقادهم بأنّها اضطراب أصاب القرآن الكريم؟

وهو ما سنحاول الإجابة عنه من خلال هذه الورقة البحثية وفق المنهج التّاريخي والخطّة التّالية:

1- **القراءات بين المثال و الواقع.**

2- **الأحرف السّبعة بين الإثبات و النّسخ.**

3- **القراءات القرآنية بين التّوقيفية و التّوفيقية.**

1.القراءات بين المثال والواقع:

1.2 حقيقة اختلاف القراءات:

إنّ المتتبع لمسار البحث والتّوجيه في القراءات القرآنية يجد أنّ أغلب هذه الدراسات كانت تدور حول مصطلح (**الاختلاف**)، بل وكان البعض يثير الاختلاف بين القرّاء من خلال ترجيح قراءة على أخرى حتّى يكاد يسقطها رغم أنّها منقولة بالتّواتر عن **النّبي** ﷺ.

ومن الفرق الإسلامية من حاول إخضاع القراءات وفق ما يناسب تصوراتهم واعتقاداتهم، فقد ورد في قراءة:" **وكلَّم الله مُوسَى تَكْلِيماً**"الآية (**164**)،سورة النساء، أنّ المعتزلة قرأت "**اللهَ**" بالنّصب وقرأت الأمّة بالرّفع، وهذا حتّى لا يثبتوا الكلام لله سبحانه وتعالى[1]، كما قرأ بعض **الرّافضة قوله تعالى**:"**وَمَا كُنْتُ مُتَخِذَ المُضِلِينَ عَضُدًا**"الآية (**51**)، سورة الكهف، بتثنية"**المُضِلِين**"وفسّروها على أنّهما **أبو بكر** و**عمر** رضي الله عنهما.

ومن النّحويين أيضاً من أنكر القراءات الّتي لا توافق أقيستهم، يقول الدكتور **مهدي المخزومي**:"فما وافق منها أصولهم ولو بالتّأويل قبلوه وما أباها رفضوا الاحتجاج به و وصفوه بالشّذوذ."[2] ، من ذلك قول **ابن جنّي** (تـ 392هـ) في قراءة **أبي عمرو** (تـ154هـ):"(**يغفر لكم**) بإدغام الرّاء في اللام، فمدفوع عندنا وغير معروف عند

أصحابنا، إنّما هي شيء رواه القرّاء ولا قوة له في القياس."[3] رغم أنّ قراءته متواترة عن النّبي □.

وعين الصّواب هو عرض هذه الأقيّسة على النّص القرآني باعتباره في أعلى مراتب الفصاحة والبيان، يقول **أبو عمرو الدّاني**(تـ 444هـ): "لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللّغة والأقيّس في العربية بل على الأثبت في الأثر والأصحّ في النّقل والرواية، إذا ثبت عنهم لم يردّها قياس عربية ولا فشو لغة لأنّ القراءة سنّة متّبعة يلزم قَبولها والمصير إليها."[4]

2.2 القراءات بين مثالية النّص القرآني و واقعية اللّهجات العربية:

تناقش هذه البينيّة علاقة القرآن بالقراءات من جانب، وعلاقة القراءات باللّهجات من جهة أخرى، والحاصل بين العناصر الثّلاثة هو ثنائية المثال والواقع الّتي تمثلها العلاقة بين القرآن واللهجات كما هو موضّح في الشّكل (أ).

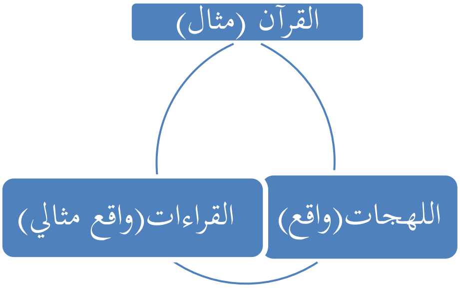

الشّكل -أ-

ولتبسيط هذه العلاقة سنحاول تسليط الضّوء على العلاقة بين العناصر الثّلاثة، من خلال إعطاء لمحة تاريخية عن كل عنصر حتّى يتسنى لنا إيجاد نقاط التّماس بينها.

3.2. اللّهجات العربية(واقع):

إنّ البيئة الجغرافية لشبه الجزيرة العربية لها علاقة كبيرة بنشأة اللّهجات، و**اللهجة**: "اللّغة الّتي جبل عليها الإنسان فاعتادها ونشأ عليها لأنّها الّتي يعرف بها بين أبناء لغته."[5]

وعرّفها المحدثون:"بأنّها مجموعة من الصّفات اللّغوية تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصّفات جميع أبناء تلك البيئة."[6]

فقد كان العربي إذا تحدث قديما عرف من أي قبيلة هو، لأنّ كل قبيلة عرفت بلهجة معينة وخاصية تميّزها عن غيرها من القبائل، والسّبب في نشأة هذه اللّهجات هو الانعزال بين فئات الشّعب الواحد فتأخذ كل فئة منحنى لغوي يخالف منحى الفئة الأخرى ومع مرور الزّمن يتأصل ويصبح سمتا متعلّقا بها، وكذلك الصّراع اللّغوي النّاتج عن الغزو، فتختلط لغة الغازي مع لغة المغزو، لتنشأ لهجة جديدة وليدة ذلك الصّراع، لذلك نجد أنّ اللّهجات العربية كثيرة.

4.2.القرآن الكريم(مثال):

لا نقصد بالتأريخ هنا ربط وجود القرآن بزمن معيّن يتعلّق به، و إنّما المراحل الّتي مرّ بها منذ نزوله على قلب سيّدنا محمد إلى آخر مرحلة و هي مرحلة الجمع و التّنظيم و الضّبط. و يمكن حصر هذه المراحل كالآتي:

مرحلة النّـــزول:

وهي مرحلة انتقال القرآن الكريم من المثال إلى الواقع مع أول آية "إقرأ" في غار حراء أين كان يتعبد محمد، فالمعلوم أنّ القرآن الكريم هو وحي من الله لسيّدنا **محمد** عن طريق سيّدنا **جبريل عليه السلام** لفظاً ومعنى، وعلى مدار ثلاث و عشرين سنة كان سيّدنا محمد يتلقى هذا الوحي، ولكلّ آية سبب نزول ومكان نزلت فيه فمنها المكي ومنها المدني، وقد كان سيّدنا محمد أثناء نزول الوحي عليه يعجل بحفظه إلى أن نزل قوله تعالى:"**ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه**"الآية (**114**)، **سورة طه**، فقد تعهّد الله بحفظ كلامه دون ما تكلّف من سيّدنا محمد.

- مرحلة الحفظ في الصّدور:

تعدّ هذه المرحلة مرحلة انتقالية على خطّ الواقع، وهي مرحلة تميّزت بمشافهة القرآن بين سيّدنا محمد والصّحابة رضوان الله عليهم،و هم بدورهم يحفظونه عنه، وقد أخرج **البخاري** عن **عبد الله بن مسعود** أنّه قال:"والله لقد أخذت من فِي رسول الله بضعاً و سبعين سورة."[7]

و أخرج عنه أنّه قال أيضاً:"كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزلت عليه"والمرسلات"، وإنّا لنتلقّاها من فِيه."[8]

ولم يكتب القرآن في حياة رسول الله، يقول **الزّركشي**(ت794هـ):"وإنّما لم يُكتب في عهد النّبي مُصحفٌ لئلا يُفضي إلى تغييره كلّ وقت، فلهذا تأخرت كتابته إلى أن كمل نزول القرآن بموته."[9]

- مرحلة الكتابة والتّدوين:

كان ذلك في عهد الصّحابي الجليل خليفة المؤمنين **أبي بكر الصّديق** رضي الله عنه، فبعد مقتل العديد من حفظة القرآن الكريم في حروب الرّدة أشار **عمر بن خطاب** رضي الله عنه على **أبي بكر** بجمع القرآن خوفاً من ضياعه أو اختلاف النّاس فيه من بعده، رغم تردّد سيدنا **أبو بكر الصّديق** في بداية الأمر بحجة أنّ هذا الأمر جديد ولم يفعله سيّدنا محمد، إلاّ أنّه اقتنع في الأَخير وقام بجمع آي القرآن الكريم على أن يكون الجمع دقيقا ومتفقاً ومرتباً، وقد وكّل **زيد بن ثابت** بالمهمة لما رآه فيه من الحكمة والعقل والأمانة، كما أنّه كان أحد كَتبة الوحي بين يدي النّبي وسمّي ما جُمع مصحفاً و وضع عند **أبي بكر الصديق** ثمّ عند **عمر بن الخطّاب** ثمّ عند ابنته **حفصة**.

-مرحلة الضّبط و التّنظيم ثمّ النّشر:

وكان ذلك في عهد الصّحابي الجليل عثمان بن عفّان رضي الله عنه و أرضاه بعدما تولّى الخلافة، ولما اتّسع مُلك الامبراطورية الإسلامية وانتشر الإسلام و زاد الفارق الزّمني بين الوحي وذاك الجيل ظَهر شقاقٌ كالّذي ظهر في عهد نبيّنا محمد ﷺ قبل نزُول حديث الأحرف السّبعة، ولكن هذه المرة كان واسع النّطاق وأشدّ من ذي قبل خاصة مع غياب الحكم الّذي يطمئنُّون إليه، وكاد الأمر يتطوّر في بعض الأحيان حتّى يُخطِّئ بعضهم بعضاً أو يكفّر بعضهم بعضاً، فقد روى **أنس بن مالك** رضي الله عنه:" أنّ حذيفة بن اليمان قدم إلى **عثمان بن عفان** رضي الله عنه و كان يغازي أهل الشّام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال **حذيفة لعثمان**:"يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمّة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنّصارى،فأرسل **عثمان** إلى **حفصة بنت عمر بن الخطاب** رضي الله عنه أن أرسلي إلينا بالصُّحف ننسخها ثمّ نردها إليك، فدعا **عثمان زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص**، و**عبد الرحمن بن الحارث بن هشام** فنسخوها في المصاحف وقال:إذا اختلفتم أنتم و **زيد بن ثابت** في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش فإنّما نزل بلسانهم ففعلوا ذلك."[10]

في قول عثمان بن عفان رضي الله عنه إشارة واضحة إلى وجود عدة لهجات في القرآن الكريم بصريح قوله:"إذا اختلفتم أنتم و زيد في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش"، ولكن خلال تلك الفترة لم يكن اختلاف هذه الأمّة في ذات القرآن، و إنّما في قراءاته الّتي سنّها الرسول ﷺ من خلال حديث الأحرف السّبعة، ومن المرجّح أنّ الأمر الّذي أفزع **حذيفة بن اليمان** لم يكن اختلاف القراءات، ولكن الأمر تعدّى إلى المفاضلة بين القراءات و تشدّد النّاس لقراءتهم وتعصبهم لها، فهدى الله **عثمان بن عفان** رضي الله عنه إلى جمع النّاس على القراءات المتواترة عن النّبي ﷺ دون إسقاط أي قراءة أو منعها.

5.2.القراءات(واقع مثالي):

ارتبط تاريخ القراءات بتاريخ القرآن الكريم فهما حقيقتان متلازمتان سارتا معا في كل محطّة من المحطّات الّتي شهدت قيام دولة الإسلام، وليست القراءات كما قال بعض الباحثين إنّها نتاج ثقافة شعبيّة، وإنّما هي وحي ربّاني لسيد الخلق ليخفّف على أمّته تلاوة القرآن بما اعتادت عليه ألسنتهم من خلال حديث الأحرف السبعة، وقد تعدّدت رواياته فمنها حديث **أُبَيْ بن كعب** رضي الله عنه أنّ رسول الله□ قال:"أَرْسَلَ إِلَيَّ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ عَلى حَرْفٍ، فَرَدَدتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتِي، فأَرسَلَ إليَّ أن أقرأَ على حَرفين فَرددتُ إليهِ أَنْ هَوِّن على أُمَتي، فَأَرْسَلَ إِلَيَّ أَنْ أَقْرَأَ عَلَى سَبْعَة أَحْرُف."[11]

وعن **بن عباس** رضي الله عنه قال، قال رسول الله□: " أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ عَلَى حَرفٍ فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ ويَزِيدُني حَتَّى انتَهَى إِلَى سَبْعَةِ أَحْرُف."[12]

و رغم تعدّد الرّوايات إلاّ أنّها تُوحي بمصدر القراءات وأنّها كما سبق وأشرنا وحي من الله سبحانه وتعالى، وليس الجمع الّذي قام به سيّدنا **عثمان بن عفان** رضي الله عنه نسخاً لها ولا جمعا للنّاس على قراءة واحدة، بل قام بنسخ عدّة مصاحف وقام بإرسالها إلى عدّة أمصار، فهل قام **عثمان بن عفان** بتوحيد قراءة القرآن وبالتّالي نسخ حديث رسول الله الموسوم بحديث الأحرف السّبعة وهو ما سنجيب عنه لاحقا؟

- **العلاقة بين القرآن والقراءات:**

أخذت هذه النقطة حيّزا من الدراسة لدى بعض الباحثين ،حيث يقول الدكتور **شعبان محمد إسماعيل**: "وأعتقد أنّها لن تحسم – علاقة القرآن بالقراءات – حتّى قيام الساعة ذلك أنّها في حقيقتها تناقش العلاقة بين الوحي الإلهي السّماوي الغيبي، و بين تناقل هذا الوحي بلغة بشرية أرضية واقعية."[13]

أعتقد أن لا أحد من العلماء سيخالف الدّكتور **شعبان إسماعيل** في رأيه حول أنّ القرآن هو الوحي الإلهي السّماوي الغيبي الذي أشار إليه سابقاً، رغم وجود بعض الكتاب ممّن يحاولون طمس هذه الحقيقة أمثال د.**نصر حامد أبو زيد** الّذي قال في وصف القرآن:"إنّ النّص في حقيقته و جوهره منتج ثقافي، و المقصود بذلك أنّه تشكّل في الواقع و الثّقافة خلال فترة تزيد على العشرين عاماً."[14]

فهو يعتبر القرآن نصّ تاريخي ومنتج ثقافي، كونه لم يوضّح هل المقصود هو ذات القرآن أم لغته فإن كان يقصد ذات القرآن فهو قد جانب الصواب و ابتعد عن الحقيقة والمراد هنا إزالة القدسية عن النّص القرآني ودراسته كنّص أدبي.

ولكن حين يتعلّق الأمر بالقراءات القرآنيّة نجده يقول عنها إنّها تناقل القرآن بلغة بشريّة، وهذا صحيح مبدئيًا، ولكن هل يقصد أنّ القراءات هي نتاج بشري لا علاقة له بالوحي الإلهي؟

لا بد من التّعريج على تعريف هذين الوجهين لإثبات العلاقة بينهما، ونستند في ذلك على قول الإمام **الزّركشي(794ه)** في كتابه **البرهان في علوم القرآن** حين قال:

"القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان، فالقرآن هو الوحيّ المنزّل على النّبي□ للبيان والإعجاز، والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتابة الحروف أو كيفيتها من تخفيف وتثقيل وغيرهما."[15]

وحتّى تتّضح هذه العلاقة لابد من التّعريف بهذين القطبين.

- **القرآن لغة**: القراءة والتّلاوة، يقول **ابن عطية(ت451ه)**:"فالقرآن مصدر من قولك: قرأ الرّجل إذا تلا، يقرأ قرآنا وقراءةً."[16]

- **القرآن في الاصطلاح**: عرّفه **الشّريف الجرجاني(ت807ه)** بقوله:"القرآن هو المنزّل على الرّسول، المكتوب في المصاحف المنقول عنه نقلا متواتراً بلا شبهة."[17]

- **القراءات في اللّغة**: القراءات جمع، مفرده قراءة وهي مصدر من الفعل قرأ يقرأ قراءة وينصرف"معناها بحسب ما تضاف إليه أو توصف به."[18]

- **القراءات في الاصطلاح**: يعرّفها **الزّركشي** (**794هـ**)كما سبق ذكره بقوله:"هي اختلاف ألفاظ الوّحي المذكور في كتابة الحروف أوكيفيتها، من تخفيف وتثقيل وغيرهما."[19]

إنّ هذا التّعريف الذّي وضعه **الزّركشي** لا يوحي بأصل القراءات القرآنية ولا بمصدرها كما نلحظ أن التّعريف ينقسم إلى شطرين: أولهما يُصنّف في خانة المثال، وهو الذّي يتحدّث فيه عن القرآن (اختلاف ألفاظ الوحي)، والشّطر الثّاني يُصنّف في خانة الواقع،و هي المرحلة الّتي ينتقل فيها هذا الوحي من مثاليته إلى الواقع البشري كنصّ تقيّده الكتابة والأداء (القراءة)، ولكن كيف انتقل هذا المثال إلى واقع ؟

إنّ كلمة (**قراءة**) بعيدة عن السّياق تقع على محورين:

الأوّل: أنّها تدلّ على الفعل الذّي يدلّ بذاته على حركة الشّفتين.

الثّاني:أنّها تدلّ على الحاصل من هذا الفعل من حروف و كلمات.

وأرى أنّ الخطّين يلتقيان عند نقطة "**الحاصل**"، والحاصل هنا هو **القرآن** أو كلمات الوحي الإلهي، فهل يمكن فصل الذّكر عن قراءته وحفظه دونها ؟

الإجابة عن هذا التّساؤل تكمن في قول **الدكتور عبد الغفور مصطفى جعفر**:"القراءة بالمعنى الكامل-لا مطلق قراءة -لا تكون إلاّ إذا كانت متلقّاة مجمعًا عليها، فهذه هي القراءة والحاصل بها هو القرآن الحسّي بالمعنى الشّرعي لا مطلق قرآن ولا يفترقان."[20]

إذًا القرآن الحاصل من القراءة المجمع عليها لا يمكن الفصل بينه وبين قراءته كما لا يمكننا الفصل بين الفعل والأثر الحاصل عنه، يقول **الحقُّ سبحانه وتعالى**:"لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّا عَلَيْنَا جَمْعَهُ وقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَبِعْ قَرْآنَهُ" **الآية (16-17)، سورة القيامة.**

من خلال هذه الآية الكريمة يظهر المحوران اللّذان تحدثت عنهما سابقا، **فقوله تعالى"لا تُحَرِّك بِهِ لِسَانَكَ"** يدلّ على المحور الأوّل للقراءة وهو (**الفعل**)، فحركة الشّفتين تنتج عنها عملية نطق الحروف والكلمات، وبالتّالي القراءة الّتي هي أصوات ذات دلالة.

أمّا المحور الثّاني فهو الحاصل من هذه القراءة وهو القرآن ويدلّ عليه **قوله تعالى:"فإذَا قُرأنهُ فاتّبع قُرآنه"**.

العلاقة بين اللّهجات والقراءات:

إنّ أغلبيـة التّفسـيرات لحـديث الأحـرف السـبعة تقـول بـأنّ سـرّ اخـتلاف أو تعـدّد القـراءات القرآنيـة إنّمـا هـو اخـتلاف لهجـات القبائـل في تلـك الفـترة، ولكـن مـا حـدث بـين **عمـر بـن الخطـاب** و**عمـرو بـن هشـام** رضـي الله عنهمـا حـين اختلفـا في قـراءة سـورة الفرقـان يجعلنـا لا نجـزم بـأنّ سـبب اخـتلاف القـراءات هـو اللّهجـات فقـط ،فقـد روى **البخـاري (تـ256هـ)** أنّ **المِسْـوَر بْـن مَخْرَمَـةَ** ،و **عَبْـد الـرَّحْمَن بْـن عَبْـد القَـارِيَّ** سمعـا **عمـر بـن الخطـاب يقـول**: "سَمِعْـتُ هِشَـامَ بـن حَكِـيم بـنْ حِـزَام يَقْـرَأُ سُـورَةَ الفُرقَـان فِي حيَـاةِ رَسُـولِ الله صـلَّى الله عَلَيْـه وسَـلَمَ، فَاسْـتَمَعْتُ لِقِرَاءَتِـهِ، فَـإِذَا هُـوَ يَقْـرَأُ عَلَـى حُـرُوفٍ كَثِـيرَةٍ لَمْ يُقْرِئْنِيهَـا رَسُـولَ الله صَـلَّى الله عَلَيـه و سَـلَم، فَكِـدْتُ أُسَـاوِرُهُ في الصَّـلاَة، فَتَصَـبَّرْتُ حَـتَّى سَـلَّمَ، فَلَبَّبْتُـهَ بِرِدَائِـهِ فَقُلْـتُ: مَـنْ أَقْـرَأَكَ هَـذِهِ السُـورَة الَّـتي سَمِعْتُـكَ تَقْـرَأْ، قَـال: أَقْرَأَنِيهَـا رَسُـول الله صَـلَّى الله عَلَيْـهِ و سَـلَم، فَقُلْـتُ: كَـذَبْتَ، فَـإِنَّ رَسُـولَ الله صَـلَّى الله عَلَيـهِ و سَـلَّم قَـدْ أَقْرَأَنِيهَـا عَلَـى غَـيْرِ مَـا قَـرَأْتَ، فَانْطَلَقْـتُ بِـه أَقُـودُهُ إِلَى رَسـوُلِ الله صَـلَّى الله عَلَيْـهِ و سَـلَمَ، فَقُلْـتُ إِنيِّ سَمِعْـتُ هَـذَا يَقْـرَأُ سُـورَة الفُرْقَـان عَلَـى حُـرُوفٍ لَمْ تُقْرِئْنِيهَـا، فَقَـالَ رَسـوُلُ الله صَـلَّى الله عَلَيـهِ و سَـلَّم: أَرْسِـلْهُ، إِقْـرَأْ يَـا هشَـام، فقـرأ القـراءة الَّـتِي سَمِعْتُـهُ يَقْـرَأْ بهـا، فَقَـالَ رَسُـولُ الله صَـلَّى الله عَلَيْـه و سَـلَمَ:كَذَلِكَ أُنْزِلَـتْ، ثُمَّ قَـالَ إِقْـرَأْ يَـا عُمَـر، فقَـرَأتُ القِـرَاءَةَ الَّـتِي أَقْـرَأَنِي، فَقَـالَ رَسُـولُ الله صَـلَّى الله عَلَيْـهِ وسَـلَّم:كَذَلِكَ أُنْزِلَـتْ، إِنَّ هَـذَا القُـرْآنَ أُنْـزِلَ عَلَـى سَـبْعَةِ أَحْـرُف فَـاقْرَؤُوا مَـا تَيَسَّـرَ مِنْـهُ."**أخرجـه البخاري**

والمعلوم أنّ **عمـر بـن الخطـاب** و **عمـرو بـن هشـام** كلاهمـا مـن قبيلـة واحـدة إلاّ أنّهمـا اختلفـا اختلاف التعدّد لا التناقض، فقد أجاز الرّسول كليهما، ولم ينكر على أحد منهما.

قال **أبو عبيد القاسم بن سلام (ت 224هـ)**:"نزل القرآن على سبع لغات، منها خمس بلغة العجز من هوزان وهم:سعد بن بكر، وجشم بن بكر، ونصر بن معاوية، وثقيف، وهذه القبائل هي الّتي يقال لها عُليا هوزان."[21]

و يتضّح من خلال قوله أنّ القرآن يشتمل على عدّة لهجات سمّاها العلماء اللّغات، ولو عقدنا مقارنة بين مفهوم اللّهجة ومفهوم القراءة لتبين أنّ كلا المفهومين يسيران على خط واحد، فالقراءة هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتابة الحروف أو كيفيتها من تخفيف وتثقيل وغيرهما، و اللّهجة هي مجموعة من الصّفات اللّغوية الّتي تنتمي إلى بيئة خاصة، إذا فتعدّد اللّهجات هو الذّي أدى إلى تعدّد القراءات واختلافها.

- العلاقة بين القرآن واللّهجات:

كيف ينتقل الوحي الإلهي إلى واقع؟

الإجابة على هذا السؤال تبرّر العلاقة بين الطّرفين، فالوّحي هو كلام الله احتوته اللّهجات العربية، واللّهجات العربية هي صناعة بشرية أو واقع بشري متغير تطوّرت بتطور الإنسان وحاجته للتواصل، وهذا التّطور الّذي تعرفه اللّغة بصفة عامة واللّهجة بصفة خاصة يوحي بالتّغيرات الّتي تطرأ على اللغة مع مرور الزمن، وبما أنّ القرآن هو مثال والمثال لا يتغيّر ولا يتبدّل.

ومن المعروف أنّه خلال الفترة الّتي نزل فيها القرآن الكريم لم تكن القبائل العربية على لهجة واحدة بل تعدّدت واختلفت اختلافات على المستوى **الصّوتي**، **والصّرفي**، **والنّحوي**، **والدّلالي** وأنّ الوجود الميتافيزيقي للنّص القرآني ينفي تماما أنّه تشكّل من الواقع كما ادعى أحد الكتاب المعاصرين حين قال:"إنّ النّص في حقيقته وجوهره منتج ثقافي، والمقصود بذلك أنّه تشكّل في الواقع خلال فترة تزيد على العشرين عاماً.

وإذا كانت هذه الحقيقة تبدو بديهية ومتفقاً عليها، فإنّ الإيمان بوجود ميتافيزيقي سابق للنّص يعود لكي يطمس هذه الحقيقة البديهية ويعكر – من ثمّ – إمكانية الفهم العلمي لظاهرة النّص."[22]

ويواصل قائلاً:"إنّ ألوهية مصدر النّص لا تنفي واقعية محتواه، ولا تنفي من ثمّ انتماءه إلى ثقافة البشر."[23]

يحاول **نصر أبو زيد** من خلال كلامه هذا أن يفصل الشّكل عن المضمون، وبتعبير آخر فإنّه يحاول تغليب الواقع على المثال، وبالتّالي تغيير نظرتنا إلى القرآن باعتباره نّصاً مقدّسًا وبالتّالي فالنّص القرآني لم ينتقل من المثال إلى الواقع حسب رأيه، بل تشكّل في بيئته لينهي نظريته بقوله:"والحقيقة أنّه لم يكن ثمّة نزول مجمل للّنص من مكان إلى آخر وراء عالم الأرض، عالم الواقع والجزئيات."[24]

ردّ على نصر حامد أبو زيد:

إنّ حقيقة انتقال القرآن من مثال إلى واقع بديهية لا طائل من النقاش فيها، لأنّها تعتبر من المسلمات الّتي يؤمن بها العقل المسلم لقول الحق سبحانه و تعالى **"إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ"الآية (01)، سورة القدر.**

فلو حكّم هذا الباحث عقله لرأى في فعل **"أنزلنا"** ماهية هذا الانتقال، فالقرآن وهذه الآية تنفي تماما نظرية تشكّل النّص القرآني في الواقع، ولو افترضنا أنّه كذلك فما ضرورة استعمال الفعل الّذي يدّل على الانتقال من مكان إلى آخر.

نعود إلى كيفية الانتقال، فلما كانت القبائل العربية على لهجات متعدّدة ومن سعة الإسلام وتيسيره على المسلمين أتاح الله سبحانه وتعالى لنبيه التّخفيف على أمّته في قراءة القرآن من خلال حديث الأحرف السّبعة، والتّفسير الغالب هو أنّ هذه الأحرف السّبعة هي اللّهجات العربية السائدة أنذاك أو مجمل الظواهر اللسانية المعروفة بها، وهكذا كان

انتقال القرآن من المثال إلى الواقع و ذلك من خلال اللهجات العربية، وحتّى يضبط هذا الانتقال وُجد علم القراءات، ومن هنا تظهر العلاقة بين العناصر الثلاثة :**القرآن – القراءات – اللهجات** وكنتيجة لما سبق نقول:انتقل القرآن من المثال إلى الواقع المثالي بواسطة اللّهجات عن طريق القراءات بحكم الأحرف السّبعة.

2.الأحرف السّبعة بين الإثبات و النّسخ:

يقول **أبو عمرو الدّاني**(ت444ه):"وأنّ أمير المؤمنين **عثمان بن عفان** رضي الله عنه ومن بالحضرة من الصّحابة قد أثبتوا جميع تلك الأحرف في المصاحف وأخبروا بصحتها."[25]

ويقول أيضاً:"وأنّه لم يُسقط شيئا من القراءات الثّابتة عن رسول الله، ولا منع القراءة بها، إذ ليس إليه ولا إلى غيره أن يمنع ما أباحه الله تعالى وأطلقه."[26]

وفي المقابل نجد أبواق الفتنة أمثال **المستشرق الألماني تسزيهر** يقول:"وفي جميع الشّوط القديم للتاريخ الإسلامي لم يحرز الميل إلى التّوحيد العقدي للنّص القرآني إلاّ انتصارات طفيفة."[27]

وبين هذا الجدل الحاصل حول إثبات ونسخ الأحرف السّبعة، يقول **أبو بكر الباقلاني** (ت 304هـ):"لم يقصد **عثمان** قصد **أبي بكر** في جمع نفس القرآن بين لوحين، وإنّما كان قصده جمعهم على القراءات الثّابتة عن النّبي، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير، ولا تأويل أُثبت مع تنزيل، ولا منسوخٌ تلاوته كُتب مع مثبتٍ رسمه ومفروض قراءته وحفظه خشية دخول الفساد والشُّبهة على من يأتي من بعد."[28]

يختصر الباقلاني منهجية **عثمان** في نسخ المصاحف وضبطها وفق الخطة التالية:

- إحصاء القراءات الثّابتة عن النّبي ﷺ، وإسقاط ما لم يتواتر عنه.
- تفادي كتابة التأويل مع آي الكتاب.
- إسقاط المنسوخ تلاوته بالمثبت رسمه.
- إثبات الأحرف السّبعة وعدم إسقاط أي حرف منها.
- إختيار صحابي ذي خبرة **زيد بن ثابت**، وهو من جمع القرآن في عهد أبي بكر الصّديق رضي الله عنه.

ولكن قد يتساءل البعض عن كيفية احتواء مصحف **عثمان** جميع الأحرف برسم واحد، يقول **عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي**:"إنّي لا أفهم كيف احتوت صحائف **أبي بكر** على الأحرف السّبعة وهي مدونة واحدة بين دفتين؟"[29]

وهو تساؤل منطقي لأنّ المصاحف العثمانية هي نسخة عن هذه الصّحائف، وبعض الأحرف لا يمكن أن يحتملها مصحف واحد كالزيادة والنقصان و الإبدال و غيرها من الظاهر الصّوتية والصّرفية والنّحوية.

يقول الدكتور **محمد سالم محيسن**:"وليس معنى ذلك أن كلّ مصحف بمفرده كان مشتملاً على جميع الأحرف السّبعة، بل المقصود أنّها كانت في مجموعها مشتملة على الأحرف السّبعة الّتي نزلت على النّبي صلى الله عليه و سلم."[30]

وقال العلاّمة **أبو عمرو الداني**(ت444هـ):"فإنْ سأل سائل عن السبب الموجب لاختلاف مرسوم هذه الحروف الزوائد في المصاحف؟،قلت:السبب عندنا أنّ أمير المؤمنين **عثمان بن عفان** رضي الله عنه لما جمع القرآن في المصاحف ونسخها على صورة واحدة وآثر في رسمها لغة قريش دون غيرها مما لا يصحّ ولا يثبت نظراً للأمة واحتياطاً لأهل الملّة، و ثبت له أنّ هذه الحروف من عند الله كذلك منزّلة ومن رسول الله ﷺ كذلك مسموعة،

وعلم أنّ جميعها في مصحف واحد على تلك الحال غير متمكّن إلاّ بإعادة الكلمة مرتين، و في رسم ذلك كذلك من التّخليط والتّغيير ما لا خفاء به ففرّقها في المصاحف، لذلك جاءت مثبتةً في بعضها ومحذوفة من بعضها."[31]

إذ لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تحوي نسخة واحدة للمصحف جميع أوجه التغيّرات المندرجة تحت الأحرف السّبعة على خلاف بعض الأوجه الأخرى الّتي يمكن إثباتها في مصحف واحد، وهذا خلافاً لما قاله بعض العلماء والباحثين الّذين رأوا بأنّ الصّحائف الّتي جمعت في عهد **أبي بكر الصديق** والّتي كانت عند **حفصة** هي المرجع الذّي اعتمده عثمان في نسخ المصاحف أنّها كانت تحوي جميع الأحرف.

والرأي الّذي ينهي هذا الجدل هو أنّه في عهد رسول الله ﷺ كان هناك كتّاب كثر للوحي، والأغلب أنّ كل كاتب كتب على الحرف الذّي سمعه من فِيه رسول الله ﷺ، فتوزّعت تلك الاختلافات بين النّاس كلّ واحد على من قرأ، وهكذا حتّى شاعت إلى أن اهتدى **عثمان بن عفان** رضي الله عنه لجمع كلّ القراءات الصّحيحة في عدّة مصاحف، وأرسل إلى كلّ مصر من الأمصار مصحفاً يحوي القراءة الّتي تعوّدوا عليها و هي كالآتي:

1- زيد بن ثابت رضي الله عنه كان معه المصحف المدني.
2- عبد الله بن السائب (تـ70هـ) كان معه المصحف المكّي.
3- المغيرة بن أبي شهاب المخزومي(تـ91هـ) كان معه المصحف الشامي.
4- أبو عبد الرحمن السّلمي (تـ 73هـ) معه المصحف الكوفي.
5- عامر بن عبد قيس كان معه المصحف البصري.

3.الظواهر اللّهجية في القراءات القرآنية:

يعتبر المستوى الصّوتي من أكثر المستويات اللّسانية المنتشرة في القراءات القرآنية بنسبة تفوق **60%**، وذلك راجع كما سبق وقلنا إلى انتقال أكثر القرآن الكريم من النّبي

 إلى الصّحابة مشافهة، وهذه المشافهة اصطدمت بأشكال مختلفة من اللّهجات العربية السّائدة كالتّحقيق فبني تميم يحقّقون الهمزة وأهل الحجاز يسهّلونها، الفتح والإمالة فأسد وهذيل من القبائل الّتي كانت تميل والفتح لأهل الحجاز، التّفخيم والتّرقيق، الإبدال وغيرها من الظواهر الصّوتية، الّتي تشير إلى العلاقة الواضحة وتأثير اللّهجات العربية السائدة أنذاك في علم القراءات القرآنية.

4. خاتمة:

من خلال هذه الورقة البحثية الّتي جمعت بين **القراءات القرآنية واللهجات العربية**، يتبين جليا أنّ نشأة علم القراءات كان نتاج تعدّد اللّهجات الّتي فرضت نفسها في النّص القرآني الكريم، وهذا لا يعني بالضرورة أن المثال تأثر بالواقع، ولكن من مباديء الدعوة الإسلامية التيسير على هذه الأمة والتخفيف عليها حتّى في قراءة القرآن، فراعت بالضرورة واقعها ولسانها وطباعها، وهو ما يعطي صورة الإنسانية لهذا الدين الذي جاء للنّاس كافة.

5- الهوامش:

[1]- محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير و التنوير، الدار التونسية للنشر، 1984م ،ج1/ص61.

[2]- مهدي المخزومي ،مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة و النّحو، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثّانية مصر: 1377ه- 1958م، ص33.

[3]- فاضل السّامرائي، الدراسات النّحوية واللّغوية عند الزّمخشري، مطبعة الإرشاد بغداد:(1390ه-1971م)،ص40.

[4]- أبو الخير ابن محمد الجزري، النشر في القراءات العشر ، مطبعة مصطفى محمد،مصر: ج1،ص 10-11.

[5]- سليمان بن سالم بن رجاء السجيمي، إبدال الحروف في اللّهجات العربية، مكتبة الغرباء الأثرية، الطبعة الأولى، المملكة العربية السعودية:1415هـ-1995م، ص67.

[6]- نفسه، ص67.

[7]- الأثر أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النّبي صلى الله عليه و سلم، صحيح البخاري ج6/ص106.

[8]- أخرجه البخاري في كتاب التفسير"تفسير سورة المرسلات"، صحيح البخاري، ج 6/ص77.

9 - بدر الدين محمد بن عبد الله الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث للنشر والتوزيع، مصر:الطبعة الأولى1427هـ-2006م، ج1/ص262.

10 - الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري(ت252هـ)، ص992.

11 - رواه مسلم(1904).

12 - صحيح البخاري(3219)، صحيح مسلم(1902)، مسند الإمام أحمد(2717).

13 - صبري الأشوح، إعجاز القراءات القرآنية دراسات في تاريخ القراءات واتجاهات القرّاء، مكتبة القاهرة: الطبعة الأولى1419هـ-1990م، ص16.

14- نصر حامد أبو زيد، مفهوم النّص دراسة في علوم القرآن، مكتبة الفكر الجديد، الدار البيضاء المغرب: الطبعة الأولى2014م، ص14.

15 - بدر الدين محمد بن عبد الله الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث للنشر والتوزيع، مصر: الطبعة الأولى1427هـ-2006م، ج2/ص43.

16 - القاضي أبي محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، منشورات دار الكتب العلمية بيروت لبنان: ج1/ص56.

17 - الشّريف الجرجاني، التّعريفات، دار الفكر للطباعة والنشر والتّوزيع، لبنان: الطبعة الأولى1419 هـ-1998م، ص123.

18 - حمدي صلاح الهدهد، مصطلحات علم القراءات في ضوء علم المصطلح الحديث، دار البصائر، القاهرة: الطبعة الأولى1429هـ ج1/ص31-32.

19 - بدر الدين محمد بن عبد الله الزّركشي، البرهان في علوم القرآن،ج2/ ص46.

20 - عبد الغفور محمود مصطفى جعفر، القرآن والقراءات والأحرف السبعة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع:الطبعة الأولى1999م، ج1/ص160.

21 - سالم محيسن، المقتبس من اللّهجات العربية والقرآنية، مؤسسة شباب الجامعة للنشر و التوزيع، ص67.

22- صبري الأشوح، إعجاز القراءات القرآنية دراسة في تاريخ القراءات واتجاهات القراء، ص17.

23 - نصر حامد أبو زيد، مفهوم النّص، دراسة في علوم القرآن، ص27.

24- المرجع نفسه، ص115.

25 - أبو عمرو الدّاني، الأحرف السّبعة للقرآن، تحقيق عبد المهيمن طحّان، دار المنارة الطبعة الأولى، ص60.

26 - المصدر نفسه، ص61.

27 - جولد زيهر، المذاهب الإسلامية، ترجمة علي حسن عبد القادر، مطبعة العلوم بشارع الخليج:الطبعة الأولى(1944م)، ص5.

28- جلال الدّين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق شعيب أرناؤوط، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت:الطبعة الأولى(1429هـ-2008م)، ج1/ ص58.

29- محمد بن إبراهيم المطرودي، الأحرف القرآنية السّبعة، ص86.

30- محمد سالم محيسن، تاريخ القرآن الكريم، دار الأصفهاني للطباعة، جدة: ص159.

[31]- شعبان إسماعيل، رسم المصحف و ضبطه بين التوقيف والاصطلاحات الحديثة، دار السلام:الطبعة الثانية (2001م)، ص29.

6. قائمة المراجع:

- أبو الخير ابن محمد الجزري، النشر في القراءات العشر ، مطبعة مصطفى محمد،مصر: ج1،ص 10-11.

- أبو عمرو الدّاني، الأحرف السّبعة للقرآن، تحقيق عبد المهيمن طحّان، دار المنارة الطبعة الأولى، ص60.

- الأثر أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النّبي صلى الله عليه و سلم، صحيح البخاري ج6/ص106.

- الشّريف الجرجاني، التّعريفات، دار الفكر للطباعة والنشر والتّوزيع، لبنان: الطبعة الأولى1419 هـ-1998م، ص123.

- القاضي أبي محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، منشورات دار الكتب العلمية بيروت لبنان: ج1/ص56.

- بدر الدين محمد بن عبد الله الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث للنشر والتوزيع، مصر:الطبعة الأولى1427ه-2006م، ج1/ص262.

- جلال الدّين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق شعيب أرناؤوط، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت:الطبعة الأولى(1429ه-2008م)، ج1/ ص58.

- جولد زيهر، المذاهب الإسلامية، ترجمة علي حسن عبد القادر، مطبعة العلوم بشارع الخليج:الطبعة الأولى(1944م)، ص5.

- حمدي صلاح الهدهد، مصطلحات علم القراءات في ضوء علم المصطلح الحديث، دار البصائر، القاهرة: الطبعة الأولى1429ه ج1/ص31-32.

- سالم محيسن، المقتبس من اللّهجات العربية والقرآنية، مؤسسة شباب الجامعة للنشر و التوزيع، ص67.

- سليمان بن سالم بن رجاء السجيمي، إبدال الحروف في اللّهجات العربية، مكتبة الغرباء الأثرية، الطبعة الأولى، المملكة العربية السعودية:1415هـ-1995م، ص67.

- شعبان إسماعيل، رسم المصحف و ضبطه بين التوقيف والاصطلاحات الحديثة، دار السلام:الطبعة الثانية (2001م)، ص29.

- صبري الأشوح، إعجاز القراءات القرآنية دراسات في تاريخ القراءات واتجاهات القرّاء، مكتبة القاهرة: الطبعة الأولى1419هـ-1990م، ص16.

- صحيح البخاري(3219)، صحيح مسلم(1902)، مسند الإمام أحمد(2717).

- عبد الغفور محمود مصطفى جعفر، القرآن والقراءات والأحرف السبعة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع:الطبعة الأولى1999م، ج1/ص160.

- فاضل السّامرائي، الدراسات النّحوية واللّغوية عند الزّمخشري، مطبعة الإرشاد بغداد:(1390هـ-1971م)،ص40.

- محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير و التنوير، الدار التونسية للنشر، 1984م ،ج1/ص61.

- محمد بن إبراهيم المطرودي، الأحرف القرآنية السّبعة، ص86.

- محمد سالم محيسن، تاريخ القرآن الكريم، دار الأصفهاني للطباعة، جدة: ص159.

- مهدي المخزومي ،مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة و النّحو، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثّانية مصر: 1377هـ- 1958م، ص33.

- نصر حامد أبو زيد، مفهوم النّص دراسة في علوم القرآن، مكتبة الفكر الجديد، الدار البيضاء المغرب: الطبعة الأولى2014م، ص14.